فى الأقصـــــر

للآنسة الفاضـلة « الزهرة »

لا أظننى أسترسل فى عزّة تأخذنى بالبـاطل إذا قلت : إن الأقصر يجب أن تعد بحق فى طليعة المشاتى العالمية العظمى ، فسماؤها دائمة الزرقة ، وشمسها الساطعة التى تضفى على الأجسام أبراد الصحة والحياة ، ونسماتها المنعشة المحيية ، وزروعها الخضراء التى لا يكفى الخريف نضرتها بصفرته الذابلة ، ونيلها السعيد المنساب فى أحشائها يوزع عليها هدايا الخصب والبركة ، ووادیها الحافل بمقابر الملوك والملكات والأمراء والنبلاء ، ومقابرها التذكارية التى تجلى الانسانية فى مثلها العليا ومبادئها السامية ، وأطلال هياكلها الأثرية ، بل قصورها الخالدة التى تقوم إلى اليوم وسط مبانيها الفخمة والمتواضعة ، وتتيح لها اتخاذ اسمها الحاضر الأقصر (القصور) — كل هذا أو بعض هذا يجعلها محط رجال أهل الفضل والثقافة والنبل ، يسعون إليها من مختلف الأقطار على أخفّ من جناح الطير . ولقد تسنى لى فى الأسبوع الماضى أن أتعرف إلى نخبة من هؤلاء الأعلام ، وأن أضع جانباً من وقتى واهتمامى بين يدى فتاة غريبة نابهة تعنى بدراسة أحوال هذه البلاد وتتغنى بأمجاد تاريخها وبدائعها ... على أن أروع الصور وأوقعها فى النفوس لا تكاد تستغنى فى استتمام جلالها عن الظلال القاتمة والألوان الغدافية ، التى تمسّ أوتار الألم المتنبهة أبداً فينا ، فقد عرض لى أثناء تجوالى مع هذه الرفيقة الفضلى ما ضاقت له نفسى ، من شؤون دعتنى إلى تحريك قلمى اليوم للفت نظر من بيدهم الأمر رجاء معالجتها استكمالاً لأسباب المجد الجدير بهذا المشتى عرض الأثرى الخالد كيلا يشيح عنه قاصدوه ، ويروا أن ما عانوه فى سبيل الوصول إليه كان ضرباً من العبث المبين والجهد المستطير ، وتنزيهاً لنا عن الانحطاط الذى رسختْ نسبته إلينا فى أذهان أهل الغرب ولا يصح أن نبقى فيه متورطين ، ولا سيما بعد أن أبدتْ صاحبتى إعجابها بمظاهرنا كلها التى تشهد بأننا قوم غمسنا فى الترف ، وحظينا بالنعم ، ونهجنا الصراط السوى فى التضامن والتكافل والكرم ، بفضل ما تدره علينا بلادنا الخصبة . وقد سألتنى يوماً عن أحياء الرعاع عندنا : هل فيها من مظاهر العوز ما تطير لمرآه القلوب ، ويرسل فى نواحى النفس جميعها لدغاً مؤلماً مسرفاً فى الإيلام ؛ فلم أخفِ عنها أن بالأقصر أحياء فقيرة كغيرها من بلاد الله ، وإن كنت قد ذكرت لها أنها لا تخلو من جماعات أهلية وحكومية ، تنظم الخير ، وترعى المعوزين ، وتعلم صغارهم تعليما إلزامياً وصناعياً بالمجان ؛ وذكرت لها فى غير تبجح ، أن قلوب أهل هذه الربوع الوادعة التى لا تزال محتفظة بغرارة الفطرة السمحة المتآخية هى منازل للرحمة ومواطن للسخاء . ثم سألتنى عن التسول وعما إذا كان مباحاً ، فوجمتُ وقد أسرع إلينا أصحاب الأجسام المشوهة ، والعيون الذابلة القذرة ، والثياب الرثة المهلهلة . وأشهد الحق أنى ما كدت أراهم حتى ذبت خجلاً ، إذ كانت العربة قد وقفت بنا فى تلك اللحظة أمام معبد الأقصر الأزلىّ ، القائم على شاطئ النيل فى أجمل أحياء المدينة وأغناها ؛ وغضضت بصرى وخشيت أن أرفعه نحو صاحبتى وهى لا ترى تجاه العظمة الماثلة أمام أعيننا ، سوى تلك الأيدى الممتدة بذل السؤال لتنقض ما شاهده القوم من مكرمات . ولو كنتُ من أرباب السيادة والسلطان لاتخذتُ كل الطرق الفعالة للقضاء على التكفف ، ولكن قلة عدتى تضيق على دائرة نفوذى ، وإن كانت لا تمنعنى التوجه إلى أولى الشأن بالحاحى أن تعزز القوات لمعاونة أولئك الشحاذين المساكين ، فإنا لو ذكرنا أن رقىّ المجموع إنما يحسب بقدر تعدد مطالب الفرد ، لرأينا أننا أبعد الأمم عن الرقى الصحيح . ولا ينتشر التسول فى محيط إلا كان دليلاً على أثرة الأقوياء الأثرياء ، ومقياساً لخسة مطالب الفقراء التى لا تتعدى ما تجدّ العجاوات فى طلابه لسدّ الرمَق . وإنها لإحدى الكبر أن يسجل أهل بلدى المطوفون الأسخياء على ذواتهم ما تستتبعه غفلة إهالهم ، وهذه طلائعه تظهر فى الجهة الواحدة بؤسا وفناء وتقلصاً وتهديماً ، وفى الجهة الأخرى نمواً وازدهاراً وانبساطاً فى رحاب النعم ، فلا يكمل سناء هذا إلا باستكمال تضاؤل تلك

ثراء وبؤس كيف يلتقيان ؟ مقيلاهما فى القلب مختلفان

فليسمحوا لى أن أنبههم إلى تدارك هذا الأمر الخطير ، وليعلموا أنى بالحاحى فى وجوب السهر على منع الشحاذين من الانتشار فى أحياء المدينة لا أبغى أن يحرموا عطفاً يخولهم إياه

بؤسهم . وبأى حق يحرمونه والأزمة عضود ، والأيام جديبة ، وأولئك المفلوكون أحوج للعون وأجدر بالمساعدة ؟ ولكنى أرجو أن يتوسلوا إلى ذلك برشاد الرأى واستخدامه لوضع كل شيء فى موضعه . وليعلموا أن خير وجوه الإحسان زيادة البذل من المال فى سبيل تخفيف الألم العام وتنمية روح الحق والصلاح والتهذيب ، وتوجيه النفوس إلى حياة العزة والكرامة ، فلا تعيش للكسل والخمول اتكالا على كرم المحسنين

هذا ولا بدّ لى هنا من الإشارة إلى ما حدث فى اليوم التالى حين رافقت صاحبتى إلى « وادى الملوك » فقد تجمهر حولنا صغار السائلين المتفنين وتتبعوا خطواتنا ، وكادوا يلزموننا أن نعطيهم شيئاً من النقود . ولعمر الحق أن دموعى تنهمر غزيرة إذ أذكر أولئك الأطفال المحرومين متاع الطفولة المقيمين فى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الجهل ، ويقطن الذل فى جوار القنوط ، الذين يعيشون على الجانب الأيسر من النيل ، فى تلك الأكواخ الحقيرة ، المنثورة حول مدافن الملوك الغر الميامين ، كجراح عميقة فى جسم كياننا الاقتصادى والعمرانى ، ويموتون مهملين . لهف قلبى على تلك الزهرات الأنيسة التى تذبل فى ظلام الحاجة والجوع والإهمال ! ونحن نمرّ بها على الجانب الأيمن ، الجانب المعمور بمدارسه دون أن نعيرهم التفاتاً . ومَنْ ذا الذى يَسْتطيع أن يدرك كنه القوى الكامنة فيهم ، التى لا تدركها النجدة والثقافة لتبرزها إلى الوجود عظمة ومجداً وفضلاً ونبلاً

إن أيديهم التى تبسط اليوم فى ذل السؤال ، ستبسط فى الغد للسطو والنهب ، إذا لم يسعفها التهذيب الصحيح ، ويجعلها أمينة للغد ، نشيطة عاملة لرقى البلاد . ولقد جابهتنى صاحبتى ببؤس هؤلاء الصغار ، وتدفقت فى الدفاع عن حقوقهم ، ودهشت كيف تتقاعد الحكومة عن رعايتهم اللازمة ، وقالت : إن الأطفال فى جميع بلاد الله يقطعون مرحلة التعليم الأولى مجاناً ، ولو ذهبت تلك البلاد فى أحضان العزلة والريف . وإنى وإن كنت أضم صوتى إلى صوتها فى وضع احتياج أولئك الصغار أمام من بيدهم الأمر ، لا أقصد رجال الحكومة فقط . ومن السفه أن نوجه نظرنا إلى الحكومة فى كل شيء ، ونطلب منها أن تخلق خلقاً جديداً . وليس من شأن الحكومات أن تفسح للناس القادرين سبل العمل ، فيسعون بكل وسيلة صحيحة لرفع الصغار والفقراء ، إلى مستوى يتعاضد فيه الجميع ويتناشدون ، متعاونين على حب الحياة ، ومراعاة المنفعة العامة

بقى أنى لا أستطيع أن أختم كلمتى اليوم قبل أن أضمنها أمرين تفزعت لهما صاحبتى . أولهما الصياح الذى اختص به باعة التحف الحديثة التى يصوغونها على طراز العاديات الأثرية ، وإلحاحهم فى عرضها علينا ، وإمعانهم فى إظهار ما كانوا يظنونه فى أنفسهم من القدرة على أن يبتزوا منا ثمنها ...

أما الأمر الثانى فالقسوة التى يبديها بعض حوذية المركبات فى إعنات خيلهم وانهيالهم عليها بسياطهم ، حتى لقد حسبت أن بلدنا ينقصها فرع لجمعية الرفق بالحيوان ، وسألتنى إن كانت الحكومة تشرف على أعمال هذه الجمعية ، فأجبتها بالإيجاب ، ودللتها على المكان الذى تدار فيه شؤونها ، وعلى مناهل الماء التى أعدتها لتخفيف وطأة الظمأ على السائمة وتكليف رجال البوليس بحمايتها من القساة الذين لا يكثر وجودهم بين الزارعين المرابعين المشهورين بعطفهم على ماشيتهم ، وتعلقهم بها تعلق الوالد بأولاده المحبوبين .

فسرى عنها وقالت وفى عينيها بريق اللجاجة والحنان : « ولكن رجائى إليك أن تحمسى رجال البوليس للتشديد على الحوذية الذين يضربون خيولهم العزيزة المسكينة بغير مسوغ » .

وإنى لعلى ثقة بأن الخير الذى وعدتها به ستحققه همة أولى الشأن من الحازمين

الزهرة

ظهر حديثاً

لحن الخلود

ديوان العاطفة السامية والوجدانية الصادق

للشاعر الملهم مصطفى على عبد الرحمن

قصيد فياض بالعاطفة جياش بالصدق نابض بالحياة

رسوم من ريشة الفنان العبقرى الأستاذ بدر أمين

يطلب من مكتبة فكتوريا الشهيرة بالإسكندرية